تفسر حينذاك ، فنقل إلينا هذا الماضي أو نقلنا إليه بحيلة لطيفة . وفن القصص لا يقتضي صاحبه استقصاء ولا نقداً علمياً دائماً ، ولا تحقيقاً وتفنيداً ، فآثر أهم الأمور التي يرى فيها روعة قصصية لأنها كانت رائعة إبان حدوثها أو فيما شعر وتخيل صاحب « على هامش السيرة » ... ثم تناولها واصفاً وحاكياً لم يترك جانباً منها إلا أضاءه وأكمل منه ما ذات الرواة . وليس من شك في أن ذلك قد عرض بأسلوب جميل هو أسلوب القصص الممتاز الجامع بين التحليل النفسي للأشخاص ، والإحاطة التامة بما يعرض له من مواقف

أما توفيق الحكيم ، فقد توسط الاثنين ، وجمع بين ميزتي العالم والأديب الممثل ، فكانت سيرته أخف شيء على النفوس . استشار المراجع القديمة ، ووقف عند ما رسمت دون أن يستعين الخيال إلا قليلاً ؛ وقد ألم بأطراف موضوعه ، وقسمه فأحسن التقسيم ، ثم اختار قضاياه وصفاها وجعلها معالم واضحة خالصة من براهين التحقيق العلمي ، وإسهاب الفن القصصي ، فصارت قضايا موجزة بالغة حاسمة ، ثم عرضها بهذا الأسلوب الحواري أو التمثيلي كما كان يتحدث الرسول وصحابته والمتصلون بسيرته قديماً إلا ما لم يرد فيه نص . وكان توفيق الحكيم بعد ذلك حذراً محتاطاً لم يمس الموضوع إلا بخفة وإن كان الأسلوب من تقسيمه وابتكاره

كان هؤلاء الكتاب ، إذا ، بين عالم محقق ، وأديب قاص ، وفني ممثل ، كل أخلص لمنهجه ، ووصل منه إلى غاية بعيدة

وتستطيع أن تتبين هذا الفرق في أسطر قليلة جداً ، فيما كتب عن أول ما عمل محمد عليه السلام في تجارة خديجة ؛ فهيكل يقرر المسألة ويقول إن أبا طالب كان السفير بين ابن أخيه وبين خديجة ؛ وطه حسين يقيم ذلك على ميل خديجة إلى محمد وإرسالها دسيساً إلى عمه تعرض عليه أن يكون ابن أخيه في تجارتها بأجر مضاعف ؛ فيأتي توفيق الحكيم ، فيقتضب المسألة ، ويترك الباب مفتوحاً للخيال .

والمرجو ألا يقف العلماء عند ما كتب هيكل ، وكفى ، وأن يتم طه حسين : « على هامش سيرته » ... وأن يجيبنا العلماء : هل تمثل سيرة الرسول على المسرح ثم ترسم على الشاشة البيضاء ؟

« رمل الاسكندرية »

أحمد الشايب

حالة العرب الاجتماعية

في عصر الدولة الأموية

للدكتور حسن إبراهيم حسن
استاذ التاريخ الاسلامي بكلية الآداب

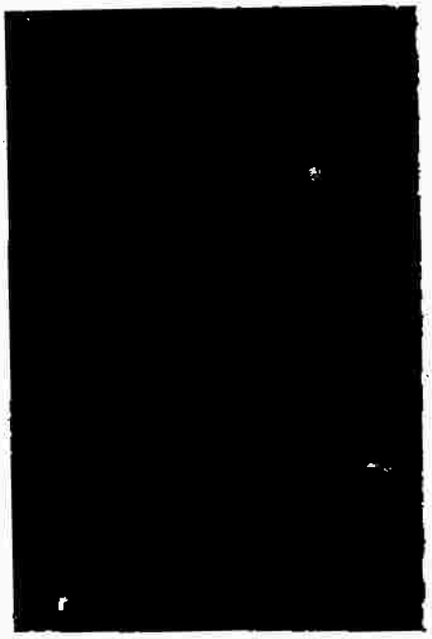

كان لاختلاط العرب والروم وغيرهم من الأمم الأخرى أثر كبير في تغيير عاداتهم وحياتهم الاجتماعية وبخاصة في عهد الأمويين فقد تأثر معاوية بن أبي سفيان بنظم الحكم التي أدخلها الروم في بلاد الشام وابتكر ابتكارات لم يسبقه إليها أحد ، فهو أول من اتخذ الحشم وأقام الحجاب على بابه ووضع المقصورة التي يصلي الخليفة بها في الجامع منفرداً عن الناس وذلك لخوفه مما جرى لعلي رضي الله عنه

وكان من أقدس واجبات الخليفة أن يؤم الناس في صلاة الجمعة والصلوات الخمس . وقد سار على ذلك الخلفاء الراشدون وبعض خلفاء بني أمية. وكان الخليفة في العهد الأموي يحضر إلى المسجد مرتدياً ثياباً بيضاء وعمامة بيضاء مرصعة بالجواهر ويرقى المنبر لإلقاء خطبة الجمعة وبيده الخاتم والعصا ، وهما شارتا الملك

وقد تشبه خلفاء بني أمية بالملوك وأبهتهم ، وكان الخليفة يجلس في صالة الاستقبال الكبرى وعلى يمينه أمراء البيت المالك وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال البلاط ثم يمثل بين يديه رسل الملوك وأعيان البلاد ورؤساء النقابات والشعراء والفقهاء وغيرهم

وكان الخلفاء الأول من بنى أمية يستمعون فى أوقات فراغهم إلى أخبار الحروب وسير فرسان العرب فى الجاهلية ، فكان معاوية يقرأ أخبار العرب وأيامها وسير ملوك العجم وسائر ملوك الأمم وحروبها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ، وكان يقرأ عليه ذلك غلمان مرتبون ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات

وكان الأمويون يستمعون لقصائد الشعراء ويمنحونهم الجوائز ويخلعون عليهم الخلع . ولم يلبث أن حل الغناء محل الشعر ، كما كلف الناس بالموسيقى والغناء ، وتدفقت على دمشق طبقات المغنين المشهورين والموسيقيين الذين كان الخلفاء يدعونهم إلى دمشق من أقاصى البلاد

وكان لعب الشطرنج و « الدوميتو » والورق معروفاً عند الأمويين . ومن الألعاب التى شاعت فى ذلك العصر قتال الديكة على الرغم من أن الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز حرما هذا النوع من الألعاب

وكان سباق الخيل من أهم تسلية الشعب على اختلاف طبقاته. ويقال إن هشام بن عبد الملك الأموى كان أول من أقام حلبات السباق لتحسين نتاج الخيل حتى أنه اشترك فى السباق معه أربعة آلاف من خيله وخيول الأمراء .

وكانت المرأة العربية فى ذلك العصر تتمتع بقسط وافر من الحرية ، وكانت المرأة متحجبة على الرغم من أنها كانت تقابل الرجال وتتحدث إليهم وتقود الجيوش .

وقد أوجب الإسلام تعلم العلم على كل مسلم ومسلمة ، كما أوجب على أمهات المؤمنين أى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعلمن الناس ويعلمن أبناءهم وبناتهم ، وقد أمرهم الله سبحانه وتعالى بذلك فقال فى كتابه العزيز (واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) ناهيك بعائشة أم المؤمنين فقد اشتهرت بالفقه ورواية الحديث والتاريخ والنسب والطب وعلم النجوم وقادت جند المسلمين يوم الجمل سنة ٣٥ هـ كما اشتهرت أختها أسماء بنت أبى بكر وأم عبد الله بن الزبير برواية الحديث والكرم والشجاعة ، فقد أثر عن عبد الله بن الزبير أنه لما انضم بعض أتباعه إلى الحجاج ابن يوسف الثقفى قائد الخليفة عبد الملك بن مروان الأموى وبقى هو فى عدد قليل من أنصاره وأيقن أنه مقتول لا محالة دخل على أمه فقال يا أماه قد خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ، ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونى ما أردت من الدنيا — فما رأيك ؟

قالت : أنت أعلم بنفسك . إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو ، فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية ، يلعبون بها . وإن أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكت نفسك ومن قتل معك . وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين . كم خلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن . فقال: يا أماه ، أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى ويصلبونى . فقالت : يابنى إن الشاة لا تتألم بعد ذبحها . فامض على بصيرتك واستعن بالله . فقبل رأسها وقال : هذا رأيى . فطفقت أمه تدعو له وتشجعه . وخرج عبدالله بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالاً شديدا ، وأظهر شجاعة نادرة حتى جل عليه العدو وقتلوه . ولم يهب القتل بفضل تشجيع أمه التى ضربت المثل الأعلى فى الشجاعة والتضحية فى سبيل إعلاء شأن الوطن .

وليس أدل على جرأة المرأة وشجاعتها من ذلك الحوار الذى دار بين معاوية وبين الدارمية ، فقد روى القلقشندى (صبح الأعشى ج ١ ص ٢٥٩ — ٢٦٠) أن معاوية حجّ فسأل عن امرأة من بنى كنانة تسمى الدارمية ، وكانت سوداء كثيرة اللحم فجئ بها ، فقال لها : ما حالك يا ابنة حام ؟ قالت : لستُ لحامٍ أدعى ، إنْ عِبْتَنى أنا امرأة من بنى كنانة . قال: صدقتِ أندرين لمَ أرسلتُ إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : بَعَثتُ إليك لأسألك علامَ أحْبَبْتِ عليًا وأبغضتنى ، ووليته وعاديتنى ؟ قالت : أو تعفينى يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا أعفيك . قالت : أما إذ أبيت ، فإنى أحببت علياً على عَدْله فى الرعية وقَسْمِه بالسَّوية ، وأبغضتُك على قتالك مَنْ هو أولى بالأمر منك ، وطلبك ما ليس لك بحق . ووليتُ علياً على ما عُقد له من الولاية ، وعلى حبه المساكين وإعظامه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفك الدماء وجَوْرك فى القضاء وحكمك بالهوى . قال : ولذلك انتفخ

بطنك وعظم ثدياك ... قالت: يا هذا، بهند كانت تضرب الأمثال لا بي . . . قال لها : فهل رأيتِ علياً ؟ قالت : لقد كنت رأيته . قال : كيف كنتِ رأيته؟ قالت : رأيته لم ينتنه الملك الذى فتنك، ولم تشغله النعمة التى شغلتك . قال لها : فهل سمعتِ لكلامه ؟ قالت : نعم ! والله كان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت الطست من الصدأ . قال : صدقتِ ، فهل لكِ من حاجة ؟ قالت : وتفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم ! قالت : تعطينى مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها . قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذّى بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأصلح بها بين العشائر . قال : فإن أعطيتك ذلك فهل أحلُّ عندك محل علىّ ؟ قالت : ماء ولا كصدّاء ، ومرعى ولا كالسّمدان ، وفتى ولا كمالك . يا سبحان الله أو دُونه . فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى إليكم ... فمن ذا الذى بعدى يؤمّل للحلم؟
خذيها هنيئاً واذكرى فعل ماجد ... جزاك على حرب العداوة بالسّلم

ثم قال : أما والله لو كان علياً ما أعطاك منها شيئاً . قالت : ولا وبرة واحدة من مال المسلمين

وممن اشتهر من نساء العرب فى ذلك العصر أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، وبنت عبد العزيز بن مروان ، وأخت الخليفة عمر بن عبد العزيز . قال المسعودى فى مروج الذهب (ج ٢ ص ١٥٢ — ١٥٣) : وفد الحجاج بن يوسف على الوليد فى بعض نزهه ، فاستقبله. فلما رآه ترجل له وقبّل يده، وجعل يمشى وعليه درع وكنانة وقوس عربية ؛ فقال له الوليد : إركب يا أبا محمد ! فقال : دعنى يا أمير المؤمنين أستكثر من الجهاد، فإن ابن الزبير وابن الأشعث شغلانى عنك ، فعزم عليه الوليد حتى ركب ، ودخل الوليد داره ، وتفضّل فى غلالة ، ثم أذن للحجاج ، فدخل عليه الحجاج فى حاله تلك وأطال الجلوس عنده . فبينما هو يحادثه إذ جاءت جارية فسارّت الوليد ومضت ، ثم عادت فسارّته ثم انصرفت . فقال الوليد للحجاج : أتدرى ما قالت هذه يا أبا محمد ؟ قال : لا والله . قال : بعثتها إلىّ ابنة عمى أم البنين ، بنت عمر ابن عبد العزيز تقول : ما عجالستك لهذا الأعرابى المتسلح فى السلاح وأنت فى غلالة ؟ فأرسلت إليها أنه الحجاج ، فراعها ذلك وقالت : والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق . فقال الحجاج : يا أمير المؤمنين ! دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة ، فلا تطلعهن على سرك ولا مكايدة عدوك ، ولا تطمعهن فى غير نفسك ، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن. وإياك ومشاورتهن فى الأمور ، فإن رأيهن إلى أفن ، وعزمهن إلى وهن ؛ واكفف عليهن من أبصارهن بحجبك ، ولا تملّك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها ، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الجلوس معهن ، فإن ذلك أوفر لعقلك، وأبين لفضلك . ثم نهض الحجاج فخرج ، ودخل الوليد على أم البنين فأخبرها بمقالة الحجاج ، فقالت : يا أمير المؤمنين ! أحب أن تأمره غداً بالتسليم علىّ ، فقال : أفعل . فلما غدا الحجاج على الوليد قال له : يا أبا محمد ! سر إلى أم البنين فسلم عليها . فقال: أعفنى من ذلك يا أمير المؤمنين . فقال : لا بد من ذلك . فمضى الحجاج إليها فحجبته طويلاً ، ثم أذنت له فأقرته قائماً ولم تأذن له فى الجلوس؛ ثم قالت: إيه يا حجاج ! أنت المتين على أمير المؤمنين بقتل ابن الزبير وابن الأشعث ؟ أما والله لولا أن الله جعلك أهون خلقه ما ابتلاك برمى الكعبة ، ولا بقتل ابن ذات النطاقين وأول مولود ولد فى الاسلام (تعنى عبد الله بن الزبير) . وأما ابن الأشعث فقد والله والى عليك الهزائم حتى لذت بأمير المؤمنين عبد الملك فأغاثك بأهل الشام، وأنت فى أضيق من القرن ، فأظلتك رماحهم، وأنجاك كفاحهم . ولولا ذلك لكنت أذل من النقد . وأما ما أشرت على أمير المؤمنين من ترك لذاته والامتناع من بلوغ أوطاره من نسائه ، فإن كن ينفرجن عن مثل ما انفرجت به عنك أمك فما أحقّه بالأخذ عنك والقبول منك ، وإن كنّ ينفرجن عن مثل أمير المؤمنين فإنه غير قابل منك ولا مصغ إلى نصيحتك . قاتل الله الشاعر وقد نظر إليك وسنان غزالة الحرورية بين كتفيك حيث يقول :

أسدٌ علىّ وفى الحروب نعامةٌ ... فتخاء تنفرُ من صفير الصّافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر

أخرجتنه عنى ! فدخل إلى الوليد من فوره ، فقال : يا أبا محمد ! ما كنت فيه ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما سكتّ حتى كان

بطن الأرض أحَبُّ إليّ من ظهرها . فضحك الوليد حتى فحص برجله الأرض ثم قال : يا أبا محمد إنها بنت عبد العزيز

ومن مظاهر الترف فى دمشق حاضرة الأمويين أنه كان لكل دار فناء مستطيل على جوانبه أعمدة من الرخام ومماش مرصوفة بالحجارة أو الحصباء على أشكال هندسية منتظمة . وفى الفناء نافورة يحيط بها حديقة صغيرة بها الأزهار الزكية الرائحة، وتظلها أشجار البرتقال والليمون، وأمام الباب شباك يوضع فوقه الطست والإبريق للوضوء — وكانت قصور الأغنياء مكونة من طابقين أحياناً — وفى الشتاء تكسى الحجرات بالسجاد الثمين وتدفأ بالمنهل (الموقد) . أما فى الصيف فكانت النافورات والنوافذ كفيلة بتلطيف حرارة الجو . وكانت سقوف الدار مزدانة بنقوش على الطراز العربى أو مطلية بالذهب. ولم تكن هناك مقاعد، فإذا كان صاحب الدار من أصحاب اليسار ، وضعت السجاجيد بعضها فوق بعض لتكون بمثابة مقعد له

وكان قصر الخليفة الأموى بدمشق غاية فى الأبهة . وقد ازدانت جدرانه بالفسيفساء، وأعمدته بالرخام والذهب، وسقوفه بالذهب المرصع بالجواهر . وقد لطف جوه النافورات والمياه الجارية والحدائق الغناء بأشجارها الظليلة الوارفة . وقد شيد الحر بن يوسف حفيد مروان بن الحكم الذى ولى بلاد الموصل فى عهد هشام ابن عبد الملك ، داراً منيفة من الرخام الخالص والمرمر ، عرفت بالمنقوشة لما تمتاز به من النقش البديع ، كما بنى خانات (فنادق) فى الموصل . وقد رأى الحر ما يعانيه أهل الموصل من المشاق فى سبيل الحصول على ماء الشرب ، فشق قناة لا تزال باقية إلى اليوم ؛ وغرس الأشجار على ضفتها حتى أصبحت بمثابة متنزه عام لأهل المدينة

وكانوا يرتدون العباءة فوق القباء ويصنعونها من وبر الجمل . وكانوا يرتدون فى الحرب أردية خاصة فيلبسون السروال عادة ورداء قصيراً بدلاً من الثياب الفضفاضة (الواسعة) التقليدية . أما لباس الرأس فهو العمامة كما كانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة . وهو عبارة عن منديل كبير متدل إلى الكتفين ليقى الرقبة حرارة الشمس . وكانت الملابس تختلف تبعا لثروة الناس ومركزهم الاجتماعى ونوع عملهم . فكسوة الفقيه والكاتب تختلف عن ثياب الجند . وكان رؤساء القبائل وغيرهم من علية القوم يرتدون قباء يصل إلى الركبتين يعلوه سروال ثم جلباب فضفاض يتدلى إلى العقبين ويشده من الوسط حزام من الحرير ، ويلبسون فوق كل ذلك الجبة أو القباء .

وكانت ثياب المرأة تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة فى البرد . وكانت إذا خرجت من بيتها ترتدى ملاءة طويلة تغطى جسمها وتقى ملابسها التراب والطين ، كما كانت تلف رأسها بمنديل يربط فوق الجبهة .

وكان العرب يكتفون بالقليل من الطعام ، فلم يتجاوز طعامهم اللون أو اللونين . وكان خير أطعمتهم الثريد وهو الخبز يفت ويبل بالمرق ويوضع فوقه اللحم . وقد تغيرت أطعمتهم وتعددت ألوانها . وفى عهد الأمويين استعمل العرب الفوط والملاعق كما كانوا يجلسون على الكراسى حول مائدة الطعام التى كانت تكسى بمفرش من القماش .

حسن ابراهيم حسن